الفصل الثاني

شؤون الأسرة ومنهج التربية

المدينة عند أفلاطون تعني الدولة؛ لأن الواقع السياسي ـ كما عرفنا سابقاً ـ قام على أساس أن كل مدينة دولة لها نظمها، وقوانين حكمها، وجيشها الذي يدافع عنها.

وأراد أفلاطون أن يضيف بُعداً آخر، فسعى إلى أن تكون المدينة أسرة كبيرة، تسودها المشاعر العائلية من غير حاجة إلى الأسرة الزوجية كما نفهمها الآن، وبذا تصبح المدينة والدولة والأسرة ألفاظاً لمفهوم واحد تقريباً.

ويمكن القول بوجه عام: إن فكر أفلاطون الاجتماعي اتجه إلى طبقة الحراس والحكام، وكل فلسفته هنا تختص بهما، ولا تحظى الطبقة العاملة باهتمام يذكر.

وقد انطلق أفلاطون من مبدأ أن العدالة هي العدالة في الفرد، لكن بصورة أوضح، ومثّل لها بشخص قصير النظر، طلب إليه أن يقرأ حروفاً صغيرة عن بعد، ثم اكتشف أن تلك الحروف نفسها مكتوبة في موضع آخر بحجم كبير، فلا شك أنها فرصة رائعة له كي يبدأ بقراءة الحروف الكبيرة، ثم ينتقل إلى الصغيرة، فعدالة الدولة هي عدالة الفرد لكن بصورة أكبر ولهذا قسم أفلاطون النفس إلى ثلاث قوى:

١ ـ القوة العاقلة وفضيلتها الحكمة.

٢ ـ القوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة.
٣ ـ القوة الشهوية وفضيلتها العفة.

وباعتدال القوى الثلاث تكون العدالة.

كذلك الدولة فهناك طبقة تسودها القوة العاقلة وهم الحكام، وطبقة تسودها القوة الغضبية وهم الحراس والجند، وطبقة تسودها قوة الشهوة وهم الفلاحون والعمال، وقد حرص أفلاطون على توزيع الأعمال والفصل التام بين الطبقات.

وفي هذا البحث[1] نحاول أن نستوضح نظرة أفلاطون، ونظريته حول شؤون تتعلق بالأسرة واتجاهات ومناهج في التربية؛ لنرى كيف أقام هذا الركن من أركان مدينته الفاضلة.

المرأة:

يقال إن المدينة اليونانية كانت من كافة الوجوه منتدى للرجال، بمعنى أن الحياة العامة في الطرقات والأسواق لا يرى فيها إلّا الرجل وحده، وظلت المرأة رهينة منزلها لا ترى من الرجال غير زوجها.

ودار الزمن دورته، وخرجت المرأة إلى ميدان الحياة في تبرج سافر، وزينة صاخبة وقد حدثنا «اكسينوفون» تلميذ سقراط في الجزء الأول من رسالته عن التربية فقال[2]:

(كانت في أثينا جمعية من القضاة، تدعى «الجينيكوسم» تُكره النساء على التزين في بهرجة ولألاء، وأن قسوة هذه المحكمة قد بلغت منتهاها فكانت تقضي بغرامة جسيمة على كل امرأة تجرؤ أن تظهر في الخارج

(١) مرجعنا في الترجمة العربية للجمهورية هو:
أ ـ جمهورية أفلاطون ـ ترجمة حنا خباز.
ب ـ جمهورية أفلاطون ـ دراسة وترجمة د. فؤاد زكريا.
جـ ـ جمهورية أفلاطون ـ ترجم مختصرة ـ نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد.
(٢) الخصوبة والخلود لأفلاطون ـ د. محمد غلاب ص ٢٨.

مهوشة الشعر أو سيئة الهندام، وبعد ذلك الحكم يسجل اسمها في لوحة عامة مقترناً بالإيحاء إلى سوق الذوق.. وقد جر ذلك على الأسر نفقات كمالية مرهقة، تسببت في خراب كثير منها، ودفعت الزوجات إلى بدع زادت على حد المألوف).

وهنا بدأ أفلاطون الطريق نحو المجتمع الفاضل ـ في نظره ـ بعبور العقبة الأولى وهي إبراز رأيه في قضية المرأة.

فالمرأة الأفلاطونية باعتبار جبلتها صالحة لكل عمل، كالرجل لا فرق بين طبائع الرجال وطبائع النساء، وليس في أعمال الدولة ما يختص بالمرأة كامرأة أو بالرجل كرجل، لكنها مواهب موزعة على أفراد الجنسين سواء بسواء، فهناك نساء موهوبات في الطب، وأخر لم يوهبن منه شيئاً، ونساء وهبن القدرة على الرياضة البدنية، وغيرهن لا يملن إليها، ونساء مُحبات للحكمة وغيرهن يبغضنها، ونساء جديرات بحراسة الدولة وأخريات غير جديرات بها.. وهكذا فالمدار على الملَكات حيثما توفرت، مكنت صاحبها من تحمل تبعاتها رجلاً كان أو امرأة.

وأفلاطون يبني رأيه هذا، على تشبيه من عالم الحيوان، وهو أن إناث كلاب الحراسة تسهم كالذكور في كل الواجبات، ولا تلتزم بيتها على أساس أنها لا تصلح إلاّ لرعاية صغارها.

ويؤكد أن الاختلاف الوحيد بين الرجل والمرأة كامن في وظيفة كل منهما تجاه النسل فقط، وهو لا يؤدي إلى اختلاف الطبائع تجاه فن أو عمل معين، وإلاّ لجاز لنا أن نقول إن للصلّع وذوي الشعر من الرجال طبيعتين مختلفتين، فنمنع إحدى الطائفتين من ممارسة مهنة صنع الأحذية مثلاً إذا كانت الأخرى تمارسها...!

ويعلن أن الرجل والمرأة لهما طبيعة واحدة إذا كان لكل منهما موهبة واحدة، كممارسة الطب مثلاً وأن الرجل ذا الميول الطبية له طبيعة مختلفة

عن الرجل ذي الميول الزراعية.. وعلى العموم فالمرأة صالحة لكل عمل كالرجل لكنها أضعف منه بوجه عام في الأعمال... وإذا رمنا استخدام النساء في عمل الرجل، وجب الاشتراك في التدريب والتهذيب، فيأخذن نصيبهن في التعليم، والتدريب العسكري، والأعمال المتعلقة بإدارة الدولة، حتى اشتراكهن مع الرجال في مدارس الرياضة، وهن عاريات الأبدان، بلا التفات لسخرية الساخرين فالمبدأ هو أن المفيد شريف والضار دنيء.

الشيوعية:

سعى أفلاطون إلى هدف يصبو إليه دائماً، وهو التفرغ الكامل لحكام المدينة وجندها، من أجل مهمتهم الأصلية والاستيعاب التام لسياسة الحكم والإدارة، واستجماع الشعور كله نحوها.

وفي سبيل ذلك نادى بثالوث شيوعي هو:

أ ـ شيوعية النساء.

ب ـ شيوعية الأولاد.

جـ ـ شيوعية الملكية.

فهو يرى في الزواج اقتراناً بين الجنسين بقصد إنجاب الأطفال ولا ينظر إليه على أنه رباط مقدس قائم على المودة والرحمة، ومن هنا فهو يسوق المرأة إلى معسكرات الجند متحملة تبعات الحراسة، وإلى نادي السياسة مشغولة بإدارة الدولة، وفي مثل هذه الظروف يتعسر الجمع بين الرجل والمرأة على انفراد، ولا يتاح لهما متابعة الرعاية لوليدهما، فيكون النساء بلا استثناء مشاعاً للرجال، وعلى الشارع أن ينتقي أكفاء لأكفاء الرجال، ويجمع بين الفريقين متوخياً ـ بقدر الإمكان ـ أن يكونوا متشابهي الطبائع وتلك سنة نتبعها في عالم الحيوان، فنحن لا نستولد كلاب الصيد كلها بل نعني باستيلاد الأفضل.

وطريقة عقد القران: هي أن يختار القضاة فضليات النساء، وأفاضل

الرجال من طبقة الحراس والحكام، ثم يجرون قرعة قائمة على الخداع، تنحي أدنياء الرجال بطريقة لا تولّد النزاع، وتجعلهم ينسبون زواجهم إلى القدر، لا إلى القضاة ثم تقام الولائم وتزف العرائس. وإذا ما وجدنا شباباً مبرزاً في الحرب أو الحكم منحناه حرية الاختلاط بالنساء، لتكثر تحت هذا الستار نوابغ الأطفال.

ولا يعقد هذا الزواج المشاع إلاّ في شرخ الصبا، وهو للفتاة من سن العشرين إلى الأربعين، وللرجل من سن الثلاثين إلى الخامسة والخمسين، فإذا نسل الرجل قبل هذا السن أو بعده يعتبر عمله خروجاً على العدالة، وهو زرع غير مقدس ولد في ظلمات الخفاء، فلا يرى الجنين النور، وإذا لم نتمكن من ذلك لزم التخلص من الطفل.

هذا بالنسبة لعملية النسل للدولة، أما المسألة الجنسية فهي مباحة للجميع ما عدا الاتصال بالأصل أو الفرع. ولكن على أي نحو يتم التمييز بين هؤلاء الأصول والفروع؟.

والجواب أن جميع الأطفال الذين يولدون بين السابع والعاشر من القران العام يدعون أبناء وبنات، وهؤلاء يعدون الذكور آباءهم والإناث أمهاتهم، وهؤلاء الذين ولدوا في دورة التوليد الخاصة بوالديهم يدعون بعضهم بعضاً إخوة وأخوات، ويحظر على الإخوة الاتصال الجنسي إلاّ إذا أصابتهم القرعة، أو وافقت الكاهنة على ذلك.

ويدعو أفلاطون إلى ضرورة الاحتفاظ بعدد السكان ثابتاً بقدر الإمكان ويترك للحكام تحديد عدد الحفلات السنوية التي تقام للقران، مع ملاحظة ما تستتبعه الحروب والأمراض وغيرها من خسائر، حتى تظل الدولة في حالة توازن تام.

وبمجرد الولادة يحمل الأطفال الممتازون إلى مراضع عامة تحت عناية مرضعات يسكن أحياء خاصة بعيدة عن الناس، ويشرف عليهم موظفون

مختصون بهذا الغرض من الجنسين، ويستدعون الوالدت إلى دور الحضارنة عندما تمتلىء أثداؤهن باللبن مع اتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة بأن لا تتعرف الأمهات على أطفالهن؛ ومن الواجب تحديد الوقت الذي تقوم فيه الأمهات بالرضاعة بحيث لا يقمن بالسهر على الأطفال، فذلك شأن المربيات والخدم، وهذا من شأنه أن يجعل الأمومة أمراً هيناً بالنسبة إلى نساء الحراس.

أما الأطفال المشوهون والمنحطون فيجب أن يختفوا عن الأعين!!.

ولا تكتمل الحلقة إلّا بشيوعية الملكية، فطبقة الحكام وطبقة الجنود يجب أن يتخلصوا من الأنانية، ويتغلبوا على عنصر الشهوة، وذلك بأن لا يملكوا عقاراً خاصاً، ولا يكون لأحدهم مخزن أو مسكن يحظر دخوله على الراغبين بل يتناولون نفقاتهم من الشعب جزاء خدمتهم له، ويكون لهم موائد مشتركة ولكي يرسخ ذلك في أذهانهم، يعلّمون بأن الآلهة أدخرت في نفوسهم ذهباً وفضة سماويين، فلا حاجة لهم إلى الركاز الترابي (ومن العار أن يدنسوا الذهب الإلهي بالذهب الأرضي).

وهذا الثالوث الشيوعي له مبرراته عند أفلاطون وأهمها ما يلي:

١ ـ الدولة جسم اجتماعي متحد المشاعر، موحد العواطف، وأفضل السبل للحفاظ على ذلك استعمال أكثرية أهلها كلمة «لي» وكلمة «ليس لي» بفم واحد للشيء الواحد، والدولة كالفرد، إذا جرحت إحدى الأصابع شعر الجسم كله بالألم لوحدة مركز الشعور، فكذلك مصلحة الدولة تكمن في اشتراكهم جميعاً في استعمال كلمة «لي»، وكلمة «ليس لي»، ومرجع ذلك إلى الشيوعية بأن نلغي النسب القائم على الدم ونستبقي أخلاق الأسرة الاجتماعية.

٢ ـ الأسرة منبع الغرائز المنحرفة، والفتن الاجتماعية، وأخلاق النفس الوضيعة، كتملق الأغنياء، واضطراب الرجال، وغضبهم في تربية الأولاد، وإحراز الأموال اللازمة لسد نفقات الأسر.

٣ ـ الدولة القوية تحتاج إلى تحسين النسل، والحفاظ على جودته ولا يكون ذلك إلاّ باختيار جودة عنصر الرجال والنساء، وممارسة الاتصال الجنسي تحت رقابة الدولة، والإنسان لا يختلف عن الخيول وسائر الحيوان في كيفية إنجاب السلالات الأصيلة.

٤ ـ الشيوعية ـ في رأي أفلاطون ـ لازمة لفكرة العدالة عنده والتي تعني أداء كل لواجبه المنوط به، وحماة الدولة والقانون يجب أن يتفرغوا لذلك بلا ملكية خاصة؛ لأنهم إذا امتلكوا أرضاً وبيوتاً ومالاً صاروا زراعاً بدل كونهم حكاماً، فيصيرون سادة مكروهين لا حلفاء محبوبين ويكاد لهم ويكيدون.

٥ ـ إن في شيوعية أفلاطون نوعاً من الزهد والعزوف، فطبقة الحكام تمثل الذهب، وطبقة الحراس تمثل الفضة، وهم فوق طبقة الزراع والعمال الذين يمثلون النحاس والحديد، وواجب الحكمة ـ عنده ـ والعقل والسمو الروحي. الاستغناء بالذهب والفضة الإلهيين عن الركاز الترابي الوضيع. والاستعلاء عن التشبه بالطبقة الدنيا في الأبوة الخاصة ومشاعر الأسرة الضيقة.

الصورة العامة للحياة الاجتماعية:

نادى أفلاطون بالعودة إلى الطبيعة في ظلال حياة فطرية سليمة، ولنستمع إليه وهو يقول في أسلوب شعري:

فلنتأمل أولاً على أي حال سيعيش أولئك الناس بعد أن نظمنا حياتهم على هذا النحو؟ ألن ينتجوا قمحاً ونبيذاً ويصنعوا ملابس وأحذية ويبنوا بيوتاً؟! ألن يشتغلوا في الصيف وهم أنصاف عراة دون أحذية ويلبسوا في الشتاء ما يكفيهم من الملابس والأحذية؟.

إنهم سيصنعون من أجل طعامهم دقيقاً وشعيراً، أو يخبزونهما ويصنعون منها شطائر وأرغفة، يجلسون لأكلها إلى جانب قطعة من جذع

شجرة أو أغصان مورقة نظيفة، ويضطجعون على أسرة مما يقطعونه من أخشاب فرشت بالقش أو عود الريحان، وهم يولمون مع أطفالهم الولائم فيحتسون النبيذ، وقد اكتست رؤوسهم من الأزهار تيجاناً، ويسبحون في أغانيهم بحمد الله[1].

وهكذا نجد أفلاطون يستمطر الطبيعة خيراتها، ويدعو إلى صفاء العيش في دفء حرارة الإيمان.

وعندما اعترض عليه بأن في ذلك حراماناً من لذائذ العيش، أعلن أنه ليس ثمة مانع من اقتناء الأسرّة، والموائد، وكل أنواع الرياش، ما دام الأمر محكوماً بحد الاعتدال في المأكل والمشرب حفاظاً على حياة الصحة والهناء.

ومما تجدر ملاحظته أن أفلاطون أباح هنا النبيذ لعامة الناس، لكنه بالنسبة لطبقة الحراس والحكام قد حرم عليهم كل مسكر؛ لأن الحاكم آخر شخص في الدنيا يباح له أن يشرب فيفقد صوابه، ومن المضحك أن يحتاج الراعي إلى من يرعاه!!.

وقد حدد للمجاهدين أطعمة بسيطة سهلة، تتفق مع سرعة الحركة والتكيف المطلوبة للجنود ـ أخذها عن «هوميروس» حين تكلم عن غذاء أبطاله في ميدان القتال، فلم يقدم لهم شيئاً من السمك مع قربهم من شاطىء البحر، ولا لحماً مسلوقاً، وإنما قدّم لهم اللحم المشوي فحسب؛ لأنه أسهل إعداداً فالمرء يرى إضرام النار أينما حل أقرب تناولاً من حمل الأواني، كما يجب الامتناع عن التوابل مطلقاً، وكل الأطعمة المعقدة، وكثرة أنواع الطعام على الموائد، والتأنق في أصناف الحلوى، حفاظاً على بنية الجسم، لأن التنوع في الطعام يولد الأمراض والعلل.

ولأفلاطون فلسفة خاصة في الطب، فهو يعتقد أن الحاجة إلى

---

(١) ترجمة د. فؤاد زكريا ص ٢٣٧.

الطبيب والمستشفى دليل سوء تهذيب المدينة وانحطاط سكانها، وأن الطب قد وضع من أجل الذين بنيتهم سليمة بطبيعتها ولم يتلفوها بالعادات الضارة، وإنما طرأ عليهم توعك خفيف، فيحتاجون إلى دواء لإفراز المرض بالقيء، أو الإسهال، أو الكي، أو بعملية جراحية بسيطة دون تعطيل لأعمال الحياة اليومية.

أما إذا أشار الطبيب بمعالجة دائمة بتعيين نوع من الطعام ينقصه حيناً ويزيده حيناً، ووضع الأربطة على الرأس، ونحو ذلك من أساليب العلاج التي تتناول عللاً لا أمل في استئناف النشاط العادي بعدها، فالمعالجة حينئذ في غير محلها، ولا وقت لملازمة الفراش، والحياة على هذا النظام لا تستأهل عناء الآلام الدائمة والمخاوف الشديدة، فإما أن يستعيد الإنسان صحته ويستمر في عمله، أو يريحه الموت الزؤام؛ لأن مريضاً ـ هذا شأنه ـ لا منفعة فيه لنفسه ولا للدولة، فقد يلد أولاداً يغلب عليهم أن يكونوا مصابين بالمرض ومن الخطأ ـ في نظر أفلاطون ـ محاولة شفائهم.

ولأفلاطون رأي في الكهول أو الذين بلغوا عتبة الأبدية، استنطق به «سيفالس» الشيخ الثري الذي دار في بيته الحوار، ويتلخص في أن المرء متى شعر بدنو الأجل، خامرت قلبه المخاوف والهموم التي لم تكن تروعه فيما سلف، يوم كان يهزأ بروايات ما وراء القبر ومعاقبة الإنسان على ما قدمت يداه، فهو الآن يضطرب جزعاً مخافة أن تكون تلك الروايات صحيحة، فيأخذ في التفكير هل أساء إلى أحد؟! فإن كان قد أساء فإنه يستيقظ من غفلته يقظة الطفل من نومه، وقد أفزعته صيحة عالية.. ولكن إذا لم يتحمل وزراً فإن الأمل الجميل هو الذي يتعهده في كهولته على حد قول الشاعر[1]:

نور الرجاء جلا داجي الخطوب وقد ... أحيا مسرته في لجة الهرم
وإن نأت عن سواه كل تعزية ... فقلبه راتع في دوحة النعم

(١) الجمهورية ترجمة حنا خباز ص ٦.

وليس الهرم في حد ذاته علة هوان، وساعة مندم على لذائذ مضت وغرام خفت حدته، ومسرات ذهب أوانها. بل على العكس من ذلك كله ففي الكهولة سلام وأمن وحرية تامة من قيود الشهوة الثقال، وقد سئل أحد الشعراء الكهول: ما هو شعورك بلذائذ الغرام الآن؟!.

أقادر على التمتع بها؟!.

فأجاب: يا صاح يسرني أني نجوت من تلك اللذات نجاتي من سيد غبي غضوب!!.

وأما شكوى الشيوخ مما يلقونه على أيدي أهليهم من صنوف الهوان فلها سبب واحد ـ عند أفلاطون ـ هو خلق الكهول وليس الهرم في ذاته، فلو كان لهم عقول حسنة الاتزان، لينة العرائك لما كان الهرم حملاً ثقيلاً، ومن خلقه على غير ذلك فكهولته وشبابه وزر ثقيل!!.

* * *

منهج التربية

وصف «جان جاك روسو» محاورة الجمهورية بأنها أجمل سفر في التربية خرج من يد بشر[1]!!.

ذلك أنها قدمت لنا منهاجاً متكاملاً لتربية طبقة الحكام والحراس. اهتمت فيه بالعقل والجسد، وجمعت بين المثال والواقع في توازن عجيب، وتحديد دقيق، ويستوعب الحياة من مهدها إلى لحدها، ويستهدف تهذيب النفس ومحبة الجمال، وصولاً إلى الخير الأعظم وحقائق الوجود العليا.

والمنهج قائم على مرحلتين:

أ - التربية عن طريق الفن وهو ذو شقين:

منهج الموسيقى. ومنهج التربية الرياضية.

ب - التربية عن طريق العلوم وينقسم إلى:

١ - منهج الرياضيات والعلوم الطبيعية.

٢ - منهج المنطق والفلسفة.

وإليك تفصيل ذلك المنهج الشامل....

أولاً: النفس الإنسانية والخير الأسمى كهدف تربوى:

سعى أفلاطون جاهداً إلى إقامة دستور للنفس الإنسانية بوصفها

(١) إميل ترجمة د. نظمي لوقا ص ٣٠.

الدولة الموجودة داخلنا، وما كانت أبحاثه حول الدولة السياسية إلاّ محاولة لتوضيح الدولة النفسية بصورة أجلى، ولذا نجده في كل أجزاء محاورة الجمهورية يعقد المقارنات بين النفس وأخلاقها، والدولة وسياستها.

وقسم أفلاطون النفس إلى ثلاث قوى، تطابق أقسام الدولة بطبقاتها الثلاث الحكام والجنود والعمال:

١ ـ القوة الذهنية وبها يعقل الإنسان ويتعلم، ويسمى صاحبها محب الحكمة.

٢ ـ القوة الغضبية وبها يندفع المرء لإحراز القوة والشهرة، ويسمى صاحبها محب الكفاح.

٣ ـ القوة الشهوية وهي حليفة اللذة في الطعام والشراب والنكاح، ويسمى صاحبها محب المال؛ لأن المال هو الوسيلة الفعالة في كل هذه الشهوات.

ويرى أفلاطون أن استقرار الإنسان وعدالة نفسه وفضيلة وجوده لا تتم إلاّ باستعلاء قوة العقل وسيادتها على باقي القوى لما تمتاز به من خبرة في كل أنواع اللذات، فمحب الحكمة يذوق لذة المال والربح منذ صباه، ويتعامل في الحياة اليومية على أساس منه، وتسير لذة المجد والكفاح في ركاب كل إنسان متى قام بعمله، فهو يجمع بين فضيلة القوة الغضبية والقوة الشهوية، بالإضافة إلى طبيعة اللذة الناجمة عن التفكير في الحقيقة المطلقة التي لا أحد يقدر أن يتذوقها، إلاّ محب الحكمة، وليس من اليسير على كل أحد أن يذوق حلاوة المعرفة، واللذة التي تلابس حقائق الوجود.

والتربية الصحيحة لدى أفلاطون تتناول المجموع كلاً بحسب درجته تحت سيادة عنصر الحكمة، فيتمتع كل قسم بلذته الخاصة بأفضل شكل ويؤدي عمله الخاص بكل عدالة.

وجاهر أفلاطون بأنه لا دولة ولا نظام ولا عدالة، ما لم تُلق مقاليد الأمور إلى أيدي الفلاسفة الذين يمثلون عنصر العقل الشغوف بحب

الحكمة ومعرفة الوجود ببصيرة تتجه إلى صورة الخير الأعظم الذي يكسب الوجود بهاءً وجمالاً. وقسم أفلاطون الوجود إلى عالمين:

١ ـ عالم البصر: ويتضمن:
أ ـ الصور أي الظلال والانعكاس.
ب ـ الموضوعات المادية حية أو جمادية.

والقوة الحاكمة على عالم البصر هي الشمس وليدة الخير الأعظم، التي تهب للمرئيات حيويتها ونماءها فضلاً عما تنشره من بديع اللون وبهي الحلل وجميل المناظر، ويمثل القسم الأول أولى مراتب المعرفة، وهي الظن بينما يمثل الثاني الاعتقاد.

٢ ـ عالم البصيرة: وينقسم إلى:
أ ـ المعرفة الناتجة عن مقدمات أو مسلمات، ويقوم على أساس من القسم الثاني من عالم البصر ويستعان عليها بالعلوم الرياضية.
ب ـ الإدراك الناشىء عن النطق ـ مقتصراً على المثل بعيداً عن المحسوسات بحيث ينتقل من مثال لآخر حتى ينتهي إلى مثال المثل.

ويطلق أفلاطون على القسم الأول الفهم أو المعرفة وعلى الثاني الإدراك أو العلم، والقوة الحاكمة على عالم البصيرة هي صورة الخير الأسمى التي تمد الأشياء المعقولة بقابليتها لأن تعرف وتدين لها في وجودها وماهيتها، كذلك فإن امتزاج جوهر «الخير الأسمى» بالأشياء وسائر الأجسام يجعلها نافعة مفيدة وجميلة عادلة.

ولا أحد يبلغ حد المعرفة التامة في كنه الأشياء، ما لم يعرف جوهر الخير وصورته المثلى.

ثانياً: التربية عن طريق الفن:

تشمل هذه المرحلة كافة الأطفال من جميع الطبقات إلى أن يتم

التمييز بينهم حسب الفطرة التي جبله عليها الإله، فالناس معادن، بعضهم يمثل الذهب وهم الذين يتولون الحكم، وبعضهم يمثل الفضة وهم الجنود، والباقون يمثلون النحاس والحديد وهم الزراع والعمال.

ويشبه الأولاد آباءهم عادة إلّا أنها قد تتخلف، فيجب العناية بجميع الأطفال ليرى أي هذه المعادن في نفوسهم، فإذا ولد الحكام أبناء في تركيبهم عنصر النحاس والحديد فينبغي إلحاقهم بالمقام الذي يتفق مع جبلتهم، وإذا أنجب الزراع أبناء يمتزج بهم الذهب أو الفضة فيجب رفعهم إلى مرتبة الحكام أو الحراس.

ومواد هذه المرحلة تنحصر في التربية البدنية والموسيقى، ويتسع معنى التربية البدنية ـ عند أفلاطون ـ لتشمل نظام الغذاء والدواء وتدريب الجسم على تحمل المشاق وإبراز ملامح الشجاعة، وتطلق الموسيقى على ما نسميه الآن بالعلوم الإنسانية أو الآداب، وهي بوجه عام ذلك الفن الذي يعبر عن الحياة بالكلمة أو الحركة.

منهج الموسيقى:

اهتم أفلاطون بالأسطورة وآثر البدء بها في تعليم الأطفال، ونادى بالسيطرة على القصاص لئلا يجنح بهم الهوى، وحدد الصفات الواجب توافرها في كتابة الأسطورة وهي:

١ ـ دعوة الأطفال إلى الاعتقاد بأن الله هو أصل كل خير، وسعادة للبشر، وأنه سبحانه جوهر بسيط لا يتكيف ولا يخرج عن المظهر اللائق بذاته، ولا يتغير ولا يتبدل، وهو ذو الجلال والإكرام.

٢ ـ الاحتفاظ بقدر من الصدق؛ لأن الكذب لا جدوى فيه، ولا يجوز لأحد الكذب إلّا للحكام فقط في مخادعة الأعداء، أو في إقناع الشعب بما هو خير للدولة.

٣ ـ التأكيد على طاعة الحكام، والتركيز على الأفعال المجيدة ومواقف الشجاعة في مواجهة المحن.

٤ ـ قمع اللذات التي تستلزم الاسترسال في الطعام والشراب واللهو؛ حتى تربي في الشباب فضيلة العفاف والاعتدال.
٥ ـ تحريم الرشوة، ودناءة الحرص على المال.

وهاجم أفلاطون أقاصيص الشعراء الكاذبة، واختلاقاتهم القبيحة، ونعى عليهم أموراً منها:
١ ـ تمثيل صفات الله سبحانه، ومواقف الأبطال تمثيلاً مشوهاً.
٢ ـ الإغراق في أوصاف الجحيم، وأهوال الموت، ومواقف الترويع، وغير ذلك من الأمور التي تجعل القلب مهموماً والحياة كئيبة.
٣ ـ الاتجاه المنافي للرجولة..

هذا وتشمل الموسيقى فن التمثيل، ولا يباح منه إلاّ مواقف الرجل الشجاع المتدين الشريف، ولا يصرح لمن نهذبهم أن يمثلوا ـ وهم رجال ـ واحدة من النساء في حال دناءتها، أو أحزانها، أو غرامها، ولا يؤذن لهم محاكاة أشرار الناس وجبنائهم ومجانينهم، و لايقلدون صهيل الخيل، ولا خوار الثور، ولا خرير الماء، وما شاكل ذلك من الأصوات والظاهرات، ولا يباح شيء من كل ذلك، إلاّ ما كان قصير المدى وعلى سبيل التسلية؛ لأن التمثيل يتمكن في النفس بتأثير الإشارات ونغمة الصوت وطرق التفكير.

وعالج أفلاطون قضية الغناء وشرحها بدقة، فالأغنية أو الأنشودة تقوم على ثلاثة عناصر هى:
١ ـ الكلمة.
٢ ـ اللحن.
٣ ـ الإيقاع.

ومن حيث الكلمات لن يكون هناك فرق بين كلمات الأغنية، وغيرها من الكلمات فمن الضروري أن تتبع القواعد التي حددها أفلاطون من قبل، وتخضع لنفس القوانين، حرصاً على الفضيلة وعدالة الدولة.

والمبدأ الذي سار عليه أفلاطون، هو أن يخضع اللحن والإيقاع للكلمات من غير عكس، ومن هنا فلا محل لألحان السكر والتخنث والكسل، ولا لألحان النواح والأنين، ولا تستعمل من الموسيقى إلّا الأنغام التي تحاكي رجلاً شجاعاً خاض معمعمة ثم غلب على أمره، فسار وهو مثخن بالجراح مهدد بالموت، يتلقى ضربات القدر بقلب ثابت وعزم لا يلين!! ولتكن هناك أنغام أخرى تعبر عن رجل منهمك في عمل سلمي، خلا من كل عنف يستعين على قضاء حاجته بالصلاة، أو يقنع الناس بالمعرفة والنصيحة، أو العكس من ذلك يقبل هو النصيحة من الناس، ويبلغ أغراضه بالحكمة فلا يركبه الغرور لنجاحه.

هاتان الطريقتان في الضرورة، أو الحرية يعبر عنهما بلحن مثير أو هادىء.

وبالنسبة لآلات الموسيقى، فلن تكون هناك حاجة إلى الآلات المتعددة الأوتار والمعقدة التركيب، ولن يستعمل في المدينة الفاضلة سوى العود والقيثارة، ولن يترك للرعاة في الريف إلّا مزمار بسيط.

ويراقب أفلاطون عمل ذوي الفنون جميعاً، من تصوير ونحت ونسيج وتطريز وعمارة، إلخ. ويحرم عليهم محاكاة الرذيلة والتهور والوضاعة، حتى لا ينشأ حراسنا بين صور النشاز، ويشبوا في مرعى فاسد يتناولون سموم الحشائش.

إن النظرية الموسيقية عند أفلاطون تجمع بين الجمال الأدبي والجمال الخلقي، فالإيقاع واللحن يستقران في أعماق النفس، ويتأصلان فيها فيبثان ما صحباه من الجمال، فيجعلان الإنسان حلو الشمائل، إذا حسنت ثقافته ويكون له نظر ثاقب في تبين هفوات الفن وفساد الطبيعة، ويهوى الموضوعات الجميلة ويفتح لها قلبه.

ويحذر أفلاطون من البدع الموسيقية، فإنه يكون لها أسوأ الأثر في

أمور الدولة كلها، فإن الفوضى تتسرب إلى ميدان الموسيقى دون أن نشعر بها من باب التسلية، حيث لا يتوقع الضرر فتنساب خلسة إلى العادات والطبائع، فتبرز فيها بأعظم قوة، ثم تنقل إلى المعاملات، ومنها تتخطى إلى الهجوم على الشرائع والقوانين، بحيث لا تترك شيئاً إلاّ قوضت أركانه في الحياة العامة أو الخاصة.

منهج التربية البدنية:

ينطلق أفلاطون من مبدأ هو أن النفس الصالحة هي التي تضفي على الجسم كل ما فيها من كمال دون العكس، وأبرز أفلاطون مجموعة اتجاهات سبق تفصيلها ـ نرمز إليها فيما يلي:

١ ـ تحريم كل مسكر عل الحكام؛ لأن الحاكم آخر شخص في الدنيا يباح له أن يشرب فيفقد صوابه، ومن العار أن يحتاج الراعي إلى من يرعاه.

٢ ـ الحرص على صحة الجسم، وسلامة أعضائه بنظام بسيط معتدل في الطعام والشراب.

٣ ـ الطب للوقاية وليس للعلاج الدائم، ولا محل في المدينة الفاضلة لمعالجة طبية تتناول عللاً لا أمل في استئناف العمل العادي بعدها.

٤ ـ ممارسة التمرينات الرياضية، والتدريب العسكري للأطفال من الجنسين بلا تفرقة ولا حياء.

وحرص أفلاطون على تأكيد أهمية الموسيقى، للنفس والتربية الرياضية للبدن، وأوجب الجمع بينهما دون الاقتصار على جانب واحد؛ لأن الذين آثروا التربية الرياضية فقط صاروا خَشني الطباع فوق حد الاحتمال وفيهم قسوة مفرطة، والذين اقتصروا على الموسيقى كانوا على نعومة ورقة غير مستحبة.

فالموسيقى والتربية الرياضية من أجل هدفين: هما الفلسفة والشجاعة، وبانسجام الموسيقى والتربية البدنية واعتدالهما تصير النفس ذات

شجاعة وعفة وتحظى بالخلق الحميد والطبيعة الصالحة، وتنتهي إلى محبة الجمال، وتتطلع إلى صورة الخير الأسمى وامتلاك الحقيقة المقدسة.

ثالثاً: التربية عن طريق العلوم:

تنتهي المرحلة السابقة من منهج التربية الأفلاطوني - في سن الثامنة عشرة تقريباً، ثم يتفرغ الشباب للتربية العسكرية لمدةسنتين أو ثلاث، وبعدها يجري لهم امتحان لانتقاء أرباب السجايا الممتازة، ممن بلغوا سن العشرين، لنبدأ معهم منهج التربية عن طريق العلوم، ونعدهم للتعرف على طبيعة الوجود الحقيقي الأسمى.

وأكد أفلاطون على مجموعة أسس للتربية ومبادىء عامة هي:

١ ـ انتقاء أوفر الشباب لياقة، وأكثرهم رجولة، من ذوي الطبيعة الأدبية الشريفة؛ لأن البذر الطيب يحتاج إلى أرض طيبة.

٢ ـ البحث عن المؤهلات الملائمة من نظر ثاقب، وذاكرة قوية، وخاطر سريع، وذهن صاف، لأن الخطأ الشائع الآن في شأن الفلسفة وسوء السمعة التي بليت به، مرده إلى أن الناس يقبلون عليها من غير جدارة شخصية.

٣ ـ التربية لا تكون قهراً أو إجباراً وإنما هي توجيه للنفس نحو ما تستطيع وإنماء للطبع الذي جبلت عليه، وكل ميسر لما خلق له.

٤ ـ الحرص على أن تصل دراسة التلاميذ للعلوم إلى مستواها الرفيع، فلا ندع التلاميذ يتعلمون فرعاً غير كامل من العلوم، أو أن يتعلموا أي شيء يقصر بهم عن بلوغ الغاية التي تتجه إليها كل الدروس.

وينقسم هذا المنهج إلى قسمين:

أ ـ منهج الرياضيات والعلوم الطبيعية.

ب ـ منهج المنطق والفلسفة.

ويستغرق منهج الرياضة والعلوم عشر سنوات كاملة، وأول علم

يجب البدء به هو علم الحساب؛ لأجل المعاملات اليومية والأغراض الحربية إلاّ أن المدخل الذي من أجله نعتد به هو أنه يسمو فوق التغير، ويلوذ بالثابت، ويرفع النفس عن المحسات، ويجبر العقل على استخدام الفهم الخالص من شوائب المادة.

ويلاحظ أن الموهوبين في الحساب سريعو الخاطر في كل العلوم، وأن الأذهان المستنيرة الفهم إذا درست الحساب تغدو أسرع فهماً.

العلم الثاني هو الهندسة، ولها أهميتها فيما يتعلق بمواقع الجنود وتوزيعهم ومناوراتهم في الميدان والزحف، إلاّ أن اليسير من المعرفة كاف لهذه الأغراض لكن مدار البحث عند أفلاطون هو هل تفضي بنا الهندسة إلى سهولة التفكير في صورة الخير الجوهرية؟!.

والجواب إن الهندسة تجتذب النفس نحو الحقيقة، وتضرب الضربة الحاسمة في ميدان الفلسفة بتنمية ملكات التعميم والتجريد.

ويلي ذلك علم الفلك وله فوائده في معرفة الفصول والشهور والسنين معرفة تامة، لا تختص بالزارع والملاح، بل يشاركهما الجندي والحاكم إلى حد المساواة، غير أن دراسة الفلك يجب أن تتخذ مقصداً آخر!.

فليس ثمة علم من دراسة المحسوس، فتلك الأجرام التي تتألق في السماء إنما هي من العالم الحسي، وعلى الرغم من كونها أجمل الأشياء المادية، فإنها أدنى مرتبة من الموجودات الحقيقية المدركة بالعقل وحده، والتي تسيطر على حركتها ودورانها، فعلينا أن نستخدم تلك السماء المرصعة بالنجوم على أنها نموذج يوصلنا إلى معرفة الحقائق العليا، مثلما يفعل المرء حين يجد رسوماً خطتها ريشة بارعة لفنان عظيم، فيجب عند دراسة الفلك أن نترك السماء المحتشدة بالنجوم جانباً، ونستخلص ما يمكن أن يعود بالفائدة على ذلك الجزء العاقل في نفوسنا. هذا ويعقد امتحان هام في سن

الثلاثين لاختيار الذين يُبرزون أعظم مقدرة وأرسخ ثبات وأمضى عزيمة في جميع فروع التهذيب، ومن يتخلف يلحق بطبقة الجنود كما يلحق من يتخلف عن امتحان مرحلة التربية عن طريق الفن بطبقة الزراع والعمال.

والذين تثبت كفاءتهم في كل الأحوال، وحسن استعدادهم وكمال ذكائهم، نواصل معهم المسيرة التربوية إلى رأس زاويتها وخاتمة بنائها ألا وهو الفلسفة، ويتفرغ الطلاب لدراستها تفرغاً تاماً مدة خمس سنوات، يستخدمون قواعد الفكر الراشد، ويدرسون مبدأ الوجود، وفكرة الخير وماهية الجمال والعدالة، وسائر المدركات الكلية في عالم المثل والوجود الحقيقي مع استمرار دراسة الفنون والعلوم السابقة.

ويدعو أفلاطون إلى اتخاذ كافة الاحتياطات، لمنع الطلاب من دراسة المنطق والفلسفة في حداثة سنهم قبل الثلاثين؛ لأنهم يسيئون استعماله ويتخذونه آلة لهو وتسلية، ويستخدمونه لمجرد المغالطة والمعارضة، شأنهم في ذلك شأن الجرو الذي يجد لذة في جذب كل من يقترب منه وتمزيق ثيابه.

وإلى هنا نأتي إلى مرحلة امتحان شاق وعسير، وذلك بأن يشترك الطلاب في الحياة العامة، ويتولوا المهام العسكرية والمناصب التي يصلح لها الشبان.

ويستمر هذا الامتحان خمسة عشر عاماً؛ ليظهر هل يثبتون رغم كل غواية أو يتزعزعون؟!.

ومتى بلغوا الخمسين من العمر يرفع الذين غلبوا التجارب وفاقوا الأقران وبرزوا في كل فروع العلم والعمل، ونسير بهم إلى الهدف النهائي فيتأملون جوهر الخير ويعاينونه ويتخذون منه مثالاً ينسجون على منواله في تنظيم بلدهم ومواهبهم، ويكرسون بقية حياتهم للفلسفة، وعلى كل منهم متى حان دوره أن يتولى زمام الحكم والسياسة كواجب لا مندوحة عن القيام به لخير الدولة ومصلحتها.

رابعاً: كهف أفلاطون وما يمثله من اتجاهات تربوية:

الحقيقة الكونية عند أفلاطون تكمن في عالم الـمُثل، وقد قدم لنا تلخيصاً كاملاً لمنهجه الفلسفي في درجات الوجود وأنواع المعرفة في مطلع الكتاب السابع من محاورة الجمهورية، وذلك حين عرض لأسطورة الكهف أو بتعبير أدق لتشبيه الكهف.

والتشبيه يعتمد على تصور طائفة من الناس، تعيش في كهف مستقل تحت الأرض، وضعوا فيه منذ نعومة أظفارهم مقيدين بالسلاسل والأغلال في أعناقهم وأرجلهم، فاضطرتهم إلى الجمود والنظر إلى الأمام فقط، ومن ورائهم اشتعلت نار على بعد في موضع عال، وبينها وبين السجناء طريق مرتفع، به جدار صغير مشابه لتلك الحواجز التي تجدها في مسرح العرائس والتي تخفي اللاعبين.

ولنتصور أناساً يمشون وراء ذلك الجدار حاملين تماثيل بشرية وحيوانية مرفوعة فوق الجدار، وبعض أولئك المارة يتكلم وبعضهم صامت.

ومن المؤكد أن السجناء لا يرون سوى الظلال التي تلقيها النار على الجدار المواجه لهم من الكهف؛ لأنهم أرغموا ألاّ يلتفتوا مدى الحياة ولا ينسبون الأصوات التي يسمعونها إلاّ إلى تلك التماثيل، ولا يعرفون من الحقيقة إلاّ تلك الظلال، وما ينسبونه إليها من الأصوات، وهي وحدها اليقينيات عندهم.

ولنفرض أن أحدهم أطلق سراحه، ووقف فجأة يدير رقبته ويسير نحو النور، ألا يزيغ بصره ويكون غير صالح لتمييز الأشياء؟!.

ألا يحار عقله بحيث يعتبر رؤاه القديمة أكثر حقيقة من الأشياء التي يحاول أن يحملق فيها؟!.

ولو استطاع ذلك الرجل أن يتدرج من رؤية الظلال، إلى تمييز الانعكاسات على الماء، إلى رفع عينيه في ضوء القمر ليلاً ـ نجده أخيراً

يستطيع أن يتأمل الأشياء كما هي في نفسها، وفي منطقتها الخاصة، ولو استرجع في ذهنه مسكنه الأول، ورفقاء سجنه القدامى لحسب نفسه سعيداً وأشفق عليهم.

ولنتصور ـ أخيراً ـ ماذا يحدث لو عاد صاحبنا واحتل مكانه القديم في الكهف؟.

أفلا يغشى الظلام عينيه لانتقاله فجأة من نور الشمس إلى ظلمات الكهف؟.

وإذا اضطر إلى إبداء رأيه في تلك الظلال، ومجادلة الراسفين في الأغلال أفلا يصير موضع هزء؟.

أو لا يقولون إنه صعد سليم النظر وعاد عليله؟.

بل إذا حاول أحد فك أغلالهم، والصعود بهم إلى النور أفلا يكون ذلك ريبة في قلوبهم تقودهم إلى الفتك به واغتياله إن استطاعوا؟.

وهذا التشبيه أو الكهف الأفلاطوني يرمز إلى عدة اتجاهات في التربية والاجتماع نوجزها فيما يلي:

١ ـ المعرفة المادية محدودة، فيها ما يستحق أن يسمى علماً، وهي شبيهة بالظلال التي يحسبها الراسفون في الأغلال حقائق ويقينيات.

٢ ـ العادة طبيعة ثانية، فمن اعتاد الظلام تتألم عيناه من ساطع الأنوار، ومن اعتاد الضياء يغشى عليه من الظلام.

٣ ـ التدرج أساس التعليم ومفتاح التربية، وفجأة القلة تعمي صاحبها.

٤ ـ أثقال اللذة وشهوات الجسد، سجن للنفس الإنسانية يعوقها عن مشاهدة صورة الخير الأسمى، وامتلاك الحقيقة الكبرى.

٥ ـ من حلّق في أعالي السمو، واستيقظ روحياً يأبى العودة إلى التصورات الوهمية، والاستسلام للخرافة، مثلما يرفض العائد إلى الكهف رأي إخوانه في الظلال.

٦ ـ طبيعة التربية، المساعدة في تحصيل العلم والمساهمة في التحول إلى الخير دون أن يكون من مهمتها خلق المعرفة في العقل، وبثها فيه بث البصر في العين العمياء، ونحن في حاجة إلى منهج يعلمنا كيف نحول النفس عن العالم المحسوس الفاني إلى عالم الحقيقة الباقي، وكيف نصلح الخطأ في توجهها، فالخارج من الكهف لا يحتاج إلاّ إلى تعويد نظره ولفت عقله إلى الحقائق الموجودة.

٧ ـ الانتفاع بأرباب العلم والسمو الروحي ضرورة ملحة؛ من أجل تهذيب الآخرين وواجب حتمي يفرض عليهم العودة إلى الكهف مرة أخرى، والأخذ بأيدي إخوانهم والارتقاء بهم إلى حيث حقائق الأشياء.

٨ ـ المصلحون في كل عصر يتحملون بأساء الدعوة وشدة الجهاد ويقولون دائماً: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين!

وباختصار فإن كهف أفلاطون، يمثل ملحمة فكرية رائعة تصور الصراع الدائم لقيم الحق والخير والجمال، في مواجهة طواغيت البشر وأساطيرهم.

* * *

تعليق ومناقشـــة

(أ) تحمّل أفلاطون عبء تقديم منهجين: أحدهما اجتماعي والآخر تربوي، وكلاهما خاضع لناموس الفكر البشري، في إيجابياته وسلبياته واختلافاته الكثيرة كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ ولو كانَ منْ عند غيرِ اللَّهِ لوجَدوا فيهِ اختلافاً كثيراً ﴾[1].

ومما يذكر لأفلاطون بالفخر رأيه في علاقة الفن بالأخلاق، وإنكاره الشديد لتمرد الشعراء والقصاص على نظم الأخلاق وقواعد الفضيلة، وهو بهذا يعتبر أول من أسس مدرسة الفن للأخلاق، على معنى أن المجتمع الراشد الذي يقوم على مبدأ للحياة وهدف، وتحكمه قيم وفضائل، يجب أن يكون مادة إنتاج لفن أصيل، ومحاكاة صادقة يعبر عنها الفنان بإحساسه العميق، وشاعريته النبيلة، وذوقه الملهم، فالفن مرآة مجتمعه!.

وقد كان أفلاطون نبيلاً حينما حدد الصفات الواجب توافرها في الأسطورة، ونعى على الشعراء أكاذيبهم واختلافاتهم القبيحة، لأن التنشئة الأولى للطفل هي الصبغة التي تظل ملامحها ثابتة تؤكد بصماتها على كل سلوك الإنسان شاباً وكهلاً.

وإن البدء مع الطفل بالأسطورة لَمِن أحدث نظم التربية فقد

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٢.

أصدر[1] خبير نفساني متخصص في نفسية الطفل هو «بروزو بيقلهايم» كتاباً بعنوان «معنى وأهمية الحكايات الخرافية» يرى فيه أن الحكايات الخرافية أكثر قيمة للأطفال من القصص الحديثة التي تقوم على أساس واقعي، ويقول المؤلف: (إن المحتوى السيكولوجي للحكايات الخرافية هام جداً بالنسبة للأطفال من أجل مساعدتهم على التغلب على كثير من المشاكل العاطفية التي تواجههم في هذه السن الصغير)، ويحلل المؤلف مضمون هذه الحكايات فيقول: إنها تمثل رموزاً بالنسبة للطفل فالمارد أو العملاق في الحكاية الخرافية يمثل الكبار بالنسبة للأطفال، والعنف الذي تنطوي عليه يساعد الطفل؛ لأنه يعكس أشياء تدور بخلده وتقلقه فيبددها، ويرى المؤلف: إنه إذا أدرك الآباء والأمهات والمشرفون على مدارس الحضانة هذا المحتوى السيكولوجي، ومدى تأثيره على نفسية الطفل، فسوف يرون ضحالة وضآلة محتوى القصص الواقعية التي تفرض على عقول الأطفال في سن مبكرة مثل: القصص التي تتحدث عن الآلات والماكينات التي تستطيع أن تصنع كل شيء.

وإنه لرائع حقاً أن يمنع أفلاطون دراسة المنطق والفلسفة في سن مبكرة، ليس لها من النضج العقلي ما يؤهلها لدراسة الكون في المبدأ والمصير، ويذكرنا ذلك بقول صاحب السلم:

والخلف في جواز الاشتغال ... به على ثلاثة أقوال
فابن الصلاح والنواوي حرّما ... وقال قوم ينبغي أن يُعلما
والقولة المشهورة الصحيحة ... جوازه لكامل القريحة
ممارس السنة والكتاب ... ليهتدي به إلى الصواب

ومنذ أن اتخذ أفلاطون من الكهف تشبيهاً لعرض منهجه الفلسفي ـ أصبح له تاريخ حضاري ذلك أن الكهف من حيث الموقع الجغرافي

---

(١) الأهرام في ١٩٧٦/٥/٣٠.

والتكوين الجيولوجي ـ مكان ملائم لإثارة خيال الإنسان وقوى التأمل فيه، وعلى مدى العصور كان الكهف ملجأ للإنسان من غوائل الطبيعة، كما كان رمزاً للرفض الفردي لأوضاع اجتماعية ونظم سياسية، ويحدثنا التاريخ عن قصة أصحاب الكهف التي حكاها القرآن الكريم عن فتية آمنوا بربهم وآثروا الفرار بدينهم من بطش قومهم وجبروت حكامهم فأووا إلى الكهف ولبثوا فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

وفي التاريخ الإسلامي نجد غار حراء فوق قمة جبل النور، حيث تلقى محمد ﷺ رسالة الحق والنور المبين، وكذا غار ثور حيث نصر الله عبده محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ كان ثاني اثنين فيه وأعين الرقباء تتلمس آثاره، فأغنت عناية الله عن الدروع والحشود.

وفي الفكر الفلسفي نرى فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) ينادي بالتخلص من أوهام الكهف، لتكوين العقل الجديد ويعني بها الآثار السيئة للطبيعة الفردية المنحرفة، والتربية الفاسدة، والعلاقات الاجتماعية الشاذة.

هذا وقد اتهم بعض الباحثين أفلاطون بنزوعه إلى الطبقية في التعليم، وأنه لا يقدم نظرية شاملة في التربية، بل يقدم منهاجاً لتربية فئة مختارة من المواطنين هي طبقة الحراس.

قد تكون تلك نظرة عجلى، لكن الباحث المدقق يستطيع أن يقول: إن أفلاطون قد نادى بأن يوضع كل إنسان في المركز العلمي أو العملي الذي يمتاز به عن سواه، وتؤهله له مواهبه وقواه، فاختلاف الطبائع والعادات والقوى والعقول أدعى للتكامل والتآلف والاتحاد، وإن نظام الامتحان الذي اهتم به أفلاطون، كفيل بإظهار تلك الاتجاهات والميول، مع ملاحظة أن التربية عنده تشمل كافة الأطفال في أولى مراحلها، ومنهج التربية عن طريق الفن أشبه ما يكون بالثقافة العامة التي يحتاج إليها الناس جميعاً، ثم يقتصر تلقي الرياضيات والعلوم على الذين يبدون استعداداً لها، إلى أن نصل إلى المنطق والفلسفة فيختص بذوي المواهب الممتازة.....

ولنعلم أن الطبقات عند أفلاطون ـ مفتوحة فقد يلد الزارع فيلسوفاً وقد ينجب الفيلسوف نجاراً، ومنهج التربية هو الذي يبرز تلك المواهب.

(ب) إن ما يجب أن يؤخذ على أفلاطون هو رأيه في الشيوعية فذلك أسوأ آرائه، ومن السهل أن نتفق معه في الأهداف مثل تحرير المرأة، وتحسين النسل، ووحدة المشاعر الاجتماعية، لكنه قد أخطأ السبيل، وضل الطريق، وقدم أوهاماً يستحيل تطبيقها.

لقد بنى أفلاطون رأيه في المرأة على تشبيه من عالم الكلاب، حيث تتساوى فيه الأنثى مع الذكر في الحراسة، وتلك مغالطة كبيرة، وسنة سيئة قدمها أفلاطون لأدعياء علم النفس حديثاً الذين قعّدوا قواعد الأخلاق، ومناهج التربية على أساس تجارب على الفئران والقطط والكلاب! ألا ساء ما يحكمون!.

إن الإنسان قبس من روح الله له قدسيته، وهو خليفة الله في أرضه فهو سيد الكون، وعقله مناط تكريمه، ورسالات الوحي المعصوم هي منهجه لمسيرة الحياة، قال تعالى: ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر ورزقناهُم من الطيبات وفضّلناهُمْ على كثيرٍ ممّنْ خلقنا تفضيلاً ﴾[1].

والاحتمال المرجّح لدى بعض الباحثين، هو أن أفلاطون كما يحمل للمرأة مشاعر غير ودية، وأنه لم يكن يدعو إلى هذا النوع من المساواة تأكيداً منه لحقوق المرأة أو بدافع الشعور الإنساني نحوها، بل إن السياق العام لتفكيره يدل على أنه يرمي بطريق غير مباشر، إلى القضاء على كل ما هو مميز للمرأة عن الرجل!.

وكل ما فعله هو إلزامه للمرأة بواجبات تنوء بحملها، ومن

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

الغريب حقا أن تحرم المرأة عواطف الأمومة، ويحال بينها وبين ممارسة حقها الطبيعي في ذلك، يقول أرنست باركر[1]:

«إن الطبيعة قد هيأتها لوظيفة خاصة، لا تقبل المرأة أبداً أن تُنيب عنها في أدائها داراً للحضانة، كما أن طول فترة نمو الأطفال وحاجتهم إلى التغذية والتربية (وهو شيء لا نظير له في أطفال الحيوانات الأخرى) يجعلان القيام بهذه الوظيفة عملاً يدوم مدى الحياة. . . . ومن المؤكد أن السياسة السليمة للدولة ليست إلغاء الأمومة، بل اعتبارها وظيفة يساهم بها صاحبها في حياة المجتمع، وهذه المساهمة بل وبواسطتها تأخذ المرأة مكانتها في حياة المجتمع وتؤدي ما تتطلبه هذه المكانة وبذلك تصل إلى العدالة».

وإن ما برّز به أفلاطون ثالوثه الشيوعي لمن النتائج الخاطئة المترتبة على مقدمات فاسدة، فلكي نوطد المشاعر العائلية، ونعممها لدى الكافة لا نلغي الأسرة ونذيب قطراباً من العسل في كمية كبيرة من الماء، ولكي نقضي على الخصومات والمنازعات لا نلغي الملكية الخاصة فنحل العقدة بقطعها، فذلك عجز خطير. ولقد صادف لب الحقيقة أرسطو حين قال[2]:

«للإنسان باعثان كبيران للرحمة والمحبة: وهما الملكية والعواطف وإنه لا محل لأحد هذين الإحساسين وللآخر في جمهورية أفلاطون».

ذلك أن الملكية تكفل لنا صلة الأصدقاء، ومساعدة المحتاجين، وتغرس فينا فضائل الجود والبذل وتستحدث فينا قوى العمل والسعي، والأسرة تنمي فينا عواطف شريفة مثل العفة والتراحم والمودة والرحمة، وتنبهنا إلى تبعات وواجبات تحمل أجمل المعاني وأقدسها، بعيداً عن

---

(١) النظرية السياسية عند اليونان ـ ترجمة لويس اسكندر جـ ٢ ص ٨٧.

(٢) السياسة ترجمة لطفي السيد ص ٦٣٣.

العلاقات العابرة أو المؤقتة، والصفقات الخاضعة لأرقام الربح والخسارة، وذلك في علاقات الأبوة والبنوة والرحم...

وما من سيئة تحسب على الأسرة - كما يقول العقاد[1]: «بالغة ما بلغت سيئاتها من الكثرة والضرر، هي بمسوغة لمحب بني الإنسان أن يهدم الأسرة من أجلها ويعفي على آثارها، فحب الأسرة - حقاً - قد سول للناس كثيراً من الجشع والأثرة ومن الجبن والبخل ومن الكيد والإجرام. وكذلك حب الإنسان نفسه قد فعل هذا في العالم الإنساني وزيادة... ولكننا لا نمحو الإنسان، ولا نمحو الأسرة من أجل الأثرة وأضرارها، وإنما نمحو الأثرة ما استطعنا، ونوفق بينها وبين الإيثار غاية ما يستطاع بين الخليقتين».

هذا وإن الضمير الإنساني ليروع حين يسمع بتلك الوحشية الأفلاطونية التي تترك أصحاب الأمراض المزمنة للموت الزؤام والتي تجعل الطب للوقاية والعلاج المؤقت السريع، وتغتصب حق الحياة من المشوهين وذوي العاهات... إنها لشرعة الغاب وقانون الوحش الذي يفتك بصغار الحيوان وضعافها...

ولننظر إلى الرحمة المهداة محمد ﷺ حين يقول: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» رواه الترمذي وأبو داود.

وحين يقول: «مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمّى» رواه الشيخان.

ومن قصص عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن زوجه دخلت عليه في مصلاه فإذا هو يبكي فسألته السبب فقال:

«إني تقلدت من أمر أمة محمد ﷺ أسودها وأحمرها فتفكرت في الفقير

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٦٥.

الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن الله سائلي عنهم يوم القيامة فخشيت ألّا تثبت لي حجة فبكيت»!.

* * *

(جـ) يحق لنا أن نبرز نظرية الإسلام في المرأة والأسرة في خطوط عامة، وبضدها تتميز الأشياء.

أولاً: الحق القانوني للمرأة مكفول بنص إلهي صريح تتصاغر أمامه كل التعبيرات القانونية ـ هو قوله تعالى: ﴿ ولهنَّ مثلُ الذي عليهن بالمعروف ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

وكافة الواجبات الشرعية منوطة بالجنسين قال سبحانه: ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتِ بعضُهم أولياءُ بعضٍ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ ويقيمونَ الصلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ ويطيعونَ الله ورسوله أولئك سيرحَمُهُم الله إنَّ الله عزيزٌ حكيم ﴾ (التوبة: ٧١).

وقد نص القرآن الكريم على مبايعة النساء في قوله جل شأنه: ﴿ يا أيها النبيُّ إذا جاءكَ المؤمنات يبايِعْنَكَ على ألاّ يُشركنَ بالله شيئاً ولا يسرقنَ ولا يزنينَ ولا يقتلنَ أولادهُنَّ ولا يأتينَ ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهنَّ ولا يعصينك في معروف فبايعهنَّ واستغفر لهنَّ الله إنَّ اللّهَ غَفورٌ رحيمٌ ﴾ (الممتحنة: ١٢).

والجانب النسائي في القرآن المجيد حافل بالعبر، فهناك قصة امرأة فرعون وامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة عمران وقصة عيسى بن مريم وقصة ملكة سبأ وقصة أمهات المؤمنين.

ومن أسماء سور القرآن: النساء ومريم والممتحنة والمجادلة وهي امرأة راجعت رسول الله ﷺ في أمر زوجها حين ظاهر منها حتى نزل القرآن

مؤيداً رأيها بل لقد جمع بين الرسول وتلك المرأة في خطاب واحد فقال: ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾.

والواقع التاريخي يرشدنا إلى أن أول المؤمنين في الإسلام هي خديجة بنت خويلد، وأول الشهداء هي سُميّة أم عمار بن ياسر، وأول الأمناء على كتاب الله بعد جمعه في عهد الخليفة الأولى أبي بكر الصديق، هي حفصة بنت عمر استُحفظت على كتاب الله إلى أن تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونسخ المصاحف وأرسلها إلى الأمصار.

وهذه المساواة الشرعية في الحقوق والواجبات هي غير المساواة في الأعمال وتقلد الوظائف، فذلك أمر لم يقم عليه دليل ـ كما يقول العقاد ـ[1] من تكوين الفطرة، ولا من تجارب الأمم، ولا من حكم البداهة والمشاهدة، بل قام الدليل على نقيضه في جميع هذه الاعتبارات.

ثانياً: الأسرة في الإسلام دين يسعى الإنسان لتحقيقه، وهي سنة الأنبياء والصالحين قال عز وجل: ﴿ ولقدْ أرسلنا رُسلاً من قبلكَ وجعلنا لهم أزواجاً وذرّية ﴾ (الرعد: ٣٨).

وهي وحدة اجتماعية شعارُها قوله سبحانه: ﴿ ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعلَ بينكم مودةً ورحمة ﴾ (الروم: ٣١).

ولضمان استمرار الحياة الزوجية أكدّ الإسلام على صمّام الأمان فقال ﷺ: «تنكح المرأة لأربع لمالها وجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» رواه البخاري.

وفي إطار من السمو الروحي، والطهر الإنساني، تبدأ خطوات المستقبل، فإذا ألقى الله في قلب امريء خطبة امْرأة، فلينظر إليها ففي

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٧٤.

الحديث الشريف: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» أي يوفق ويؤلف بين قلبيكما، وعلى الرجل أن يقدم للمرأة هدية تعبيراً عن الولاء والوفاء، هي المهر وهو نحلة أي عطية خالصة بنص قوله تعالى: ﴿ وآتوا النساء صدُقاتِهِنَّ نحلةً فإنْ طِبنَ لكمْ عنْ شيءٍ منه نفساً فكلوْه هنيئاً مريئاً﴾ (النساء: ٤).

فليس المهر ثمناً للمتعة فهي مشتركة، ولا لتأثيث المنزل فهو واجب الزوج على قدر استطاعته ولذا فقد نهى الإسلام عن المغالاة في المهور، وأعظم النكاح بركة أيسره مؤنة.

بعد ذلك يُعقد القران في جو من البشر والتفاؤل، قال عليه الصلاة والسلام: «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف» رواه أحمد والترمذي وحسّنه.

وهنا تبدأ تكاليف الحياة منوطة بالرجل صاحب القوامة قال سبحانه: ﴿ أسكنوهُنَّ مِنْ حيثُ سَكنتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ (الطلاق: ٦).

﴿ وعلى المولود له رزقُهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروف ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

وترفرف العادات الاجتماعية على حياة الأسرة، فللبيوت حرمة قال سبحانه: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتّى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ﴾ (النور: ٢٧).

وللمرأة زينة لا يراها أجنبي، قال تعالى: ﴿ ولا يُبدِينَ زينَتَهنَّ إلّا ما ظهرَ منها وليضربنَ بخُمرِهنَّ على جيوبِهنَّ ﴾ (النور: ٣١).

وللأولاد حق الحياة وحق الأدب، قال عزَّ شأنه: ﴿ ولا تقتُلوا أولادَكُم خشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزقُهمْ وإيّاكم ﴾ (الإسراء: ٣١).

﴿ وأْمُرْ أهلكَ بالصَّلاةِ واصطبِرْ عليها ﴾ (طه: ١٣٢).

وللوالدين حق الطاعة، وحسن المعاشرة قال عز وجل: ﴿ وَوَصَّيْنَا

الإنسانَ بوالديهِ حملتْهُ أمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وفصالُهُ في عامين أن اشكرْ لي ولوالديكَ إليَّ المصيرُ﴾ (لقمان: ١٤).

ولذوي الرحم والقُربى حق الصلة والبرّ قال تعالى: ﴿واتّقوا الله الذي تساءلونَ بهِ والأرحام﴾ (النساء: ١).

* * *